الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا ورزقًا طيبًا وعملاً متقبلاً، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علَّمتنا وزدنا علمًا، اللهم أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين. أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابٌ ذكر قسوة القلب

وقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ الآية [المائدة: ١٣] ، **وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾** [الزمر: ٢٣] ، **وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ الآية** [الحديد: ١٦] .

****

قال المصنف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه الكبائر: «**بابٌ ذكرُ قسوة القلب**» ؛ قسوة القلب آفة عظيمة من آفات القلوب، وذلك أن القلب يمرض، وإذا اشتد به المرض أُصيب بهذه الآفة «قسوة القلب»، وإذا وُجدت هذه الآفة في القلب –حمانا الله أجمعين– فإن القلب يُظلم؛ فلا تنفعه موعظة، ولا يرتدع بوعيد، ولا يحركه وعد، ولا ينفع فيه ترغيب ولا ترهيب، بل يكون معرِضًا عن كل خير، منصرفًا عن الحق والهدى ، مقبِلاً على كل ضلال وباطل . وهذا مما يبين خطورة هذه المضغة الصغيرة التي في الإنسان، وعظم أثرها على سلوكه وأعماله، قد مر معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)).

أورد رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة آياتٍ بدأها بقول الله عزّ وجلّ : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ؛ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُم﴾ السياق عن اليهود ، قد أخذ الله عليهم الميثاق بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولزوم طاعة الله واتباع الرسول، أخذ عليهم العهد بذلك فنقضوا عهد الله من بعد أن أوثقوا ذلك العهد والالتزام بما عاهدوا الله تبارك وتعالى عليه؛ فترتب على ذلك هذه العقوبات التي صدّرها الله سبحانه وتعالى باللعن لهم ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ ؛ واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله عزّ وجلّ. والباء في قوله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُم﴾ باء السببية ، أي بسبب نقضهم للميثاق لعنهم الله سبحانه وتعالى وطردهم من رحمته ، وبسبب نقضهم للميثاق أيضًا جعل الله تبارك وتعالى قلوبهم قاسية.

وتنبَّه هنا لفائدة مهمة تتعلق بهذه الترجمة ؛ ألا وهي: أن دخول الإنسان في المعاصي معصيةً تلو الأخرى، وتفريطه في الطاعات والواجبات الدينية واجبًا تلو الآخر يترتب عليه قسوة القلب ، قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ الميثاق الذي كان نقضوه هو نقضٌ للزوم الطاعة من صلاة وزكاة وامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى ، فنقضوا هذا العهد، فبسبب ذلك لعنهم الله وجعل قلوبهم قاسية. إذًا قسوة القلب هو أمرٌ يترتب على ولوج المرء في المعاصي ودخوله فيها، وتركه للواجبات الدينية التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على عباده .

قال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ انتبه هنا لقوله ﴿وَجَعَلْنَا﴾ ؛ فإن القلوب كلها بيد الله، قلوب العباد كلها بيد الله سبحانه وتعالى، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: ((مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ بني آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إلا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ)) . وهنا قال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ فهو الذي بيده سبحانه وتعالى صلاح القلوب وسلامتها وزكاتها، ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٩] ، الأمر كله بيده جلّ وعلا.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ ومعنى «قَاسِيَةً» : أي مثل الحجارة في قسوتها، وربما كانت أشد قسوة. وإذا وصل القلب إلى هذه المرحلة لم ينتفع بموعظة، ولم ينتفع بزاجر، ولم يُفِد فيه ترغيب ولا ترهيب .

قال : ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ؛ ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ أي كلام الله سبحانه وتعالى ووحيه وتنزيله يحرفونه ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يصرفونه عن مواضعه ؛ إما بتغيير في ألفاظه ، أو بتغيير في معانيه ودلالاته ؛ من تغييرهم في الألفاظ: لما قال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[البقرة: ٥٩] حرّفوا الكلِم وزادوا فيه حرفًا، قالوا: حنطة، أي حبة من الحنطة، ﴿حِطَّةٌ﴾ أي حُطَّ عنا الذنوب والخطايا، فزادوا حرفًا وجعلوا ذلك معناه: حبة حنطة ، فبدل أن تكون الكلمة كلمةٌ فيها طلب الغفران من الله سبحانه وتعالى جعلوها كلمةً فيها طلب للدنيا وما فيها من طعام وغذاء ونحو ذلك.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ؛ والتحريف نوعان: تحريف لفظي ، وتحريف معنوي .

- والتحريف اللفظي: يكون بتغيير الكلمة وإبدالها بكلمة أخرى ، أو بتغيير حرفٍ في الكلمة، أو بتغيير حركة إعرابية مثلاً في الكلمة أو حركة غير إعرابية ، بحيث يتغير المعنى بتغير الكلمة.
- والتحريف المعنوي : يكون مع إبقاء الكلمة كما هي لكن تُعطى الكلمة معنى لفظ آخر.

وهذا كله ذكره الله سبحانه وتعالى في أوصاف اليهود.

ثم أورد رحمه الله قول الله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ ؛ ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ القرآن الكريم ، وهذا فيه فضل هذا القرآن وعظم شأنه، وأنه أفضل الكتب المنزلة وأعظمها شأنًا، وهو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على خير رسله صلوات الله وسلامه عليه ، فهو أفضل كتاب وقد أُنزل على أفضل رسول عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا الكتاب خاتمة الكتب السماوية ، فكما أن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام لا نبي بعده فإن كتابه القرآن الكريم لا كتاب بعده، فهو آخر الكتاب المنزلة وخيرها وأعظمها وأفضلها.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾؛ وهذا الوصف للقرآن بالتشابه هو وصفٌ للقرآن كله، فالقرآن كله متشابه، ومعنى متشابه: أي متجانس ، متوائم ، يؤيد بعضه بعضًا، ولا يعارض بعضه بعضًا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] . فالقرآن الكريم متشابه : أي آياته وسوره ودلالاته متشابهة ليس فيها تعارض وليس فيها تناقض، بل يؤيد بعضه بعضًا، فهذا وصفٌ للقرآن كله، وهذا يسمى التشابه العام.

لأن التشابه الذي وصف به القرآن الكريم نوعان: تشابه عام ، وتشابه خاص .

- التشابه العام: هو هذا المذكور في هذه الآية الكريمة، والمراد به كما عرفنا : التشابه بمعنى التجانس والتواؤم وعدم التعارض والاختلاف ، فهذا وصفٌ للقرآن الكريم كله.
- وأما التشابه الخاص : فهو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[آل عمران: ٧] ؛ فوصف بعض القرآن بالتشابه، وفي آيتنا هذه وصف القرآن كله بالتشابه. فإذًا فالتشابه الذي وُصف به القرآن : تشابه عام وهو المذكور في هذه الآية، وتشابه خاص وهو المذكور في آية آل عمران. والتشابه الخاص معناه : خفاء المعنى وعدم ظهوره ، فالقرآن منه «آيات محكمات» أي واضحة ظاهرة المعنى بيّنة، و«آيات متشابهات» أي معناها ليس ظاهرًا لكل أحد، فيها خفاء، لا يقف على معناها ولا يعلم مدلولها إلا الراسخون في العلم، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[آل عمران: ٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» أي تأويل المتشابه. فإذًا التشابه الخاص المراد به: خفاء المعنى، وهذا الخفاء ليس خفاءً مطلقًا، وهذا التشابه ليس تشابهًا مطلقًا، وإنما هو تشابه نسبي ، بمعنى أنه يخفى على بعض الناس ولا يخفى على آخرين وهم الراسخون في العلم.

قال: ﴿مَثَانِيَ﴾ وهذه صفة أخرى للقرآن، مَثَانِيَ: أي تُثنّي فيه وأُبدي فيه وأُعيد من ذكر أسماء الله وصفاته وعظمته وجلاله وكمال تدبيره، وأيضًا تُثنّي فيه القصص ، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وبيان الأحكام، وذكر الجنّة وذكر النّار، وأخبار النبيين، وغير ذلك.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ذكر أمران؛ الأول: اقشعرار الجلود. والثاني: لينها ، ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ و﴿تَلِينُ﴾ وهذا كله من التأثر بآيات القرآن الكريم.

وإذا تأملت في آيات القرآن تجد أن آيات القرآن فيها آيات فيها وعيد ، فيها تهديد، فيها تخويف، فيها إنذار، فيها تحذير من سخط الله وعقوبته سبحانه وتعالى، فهذه الآيات تأثيرها في القلوب هو هذا: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ ؛ لأن هذا مقام خوف وخشية واقشعرار الجلود وخوفها، عندما يسمع ويتأمل القارئ أو السامع لكلام الله سبحانه وتعالى آيات الوعيد التي في القرآن تُحرّك في قلبه خشية من الله سبحانه وتعالى، وفي بدنه وجلده قشعريرة، خوفًا وخشية من عقاب الله وسخطه وعذابه سبحانه وتعالى.

ثم القرآن الكريم أيضًا فيه آيات أخرى فيها الترغيب والترهيب، وذكر الجنة، وذكر النعيم، وذكر الثواب، وذكر الرحمة، وذكر المغفرة، وذكر التوبة وذكر العفو، إلى غير ذلك، فهذه الآيات آيات الترغيب تلين بتأملها وتدبرها وسماعها جلود هؤلاء المؤمنين. وهذا فيه أن القرآن بتلاوة المسلم له يتحرك فيه الأمران، يتحرك فيه الترغيب والترهيب، الرغبة والرهبة، الرجاء والخوف، لأن القرآن وعد ووعيد، ترغيبٌ وترهيب.

قال: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ؛ وهذا فيه أن القرآن الواجب على المسلم ألا يكون حظه منه مجرد التلاوة دون التأمل في المعاني والتدبر في الدلالات، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص:٢٩] ، ويقول عزّ وجلّ : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء: ٨٢] ، ويقول جلّ وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[محمد: ٢٤] ، ويقول جلّ وعلا: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[المؤمنون: ٦٨] ، فالله عزّ وجلّ أنزل هذا القرآن لتُتدبَّر آياته، ولتُعقل معانيه، وليُعمل به. فإذا كان القارئ يقرأ القرآن بالتدبر؛ فإن هذه الأوصاف -بإذن الله سبحانه وتعالى- تظهر عليه ويكون من أهلها، ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

قال: وقوله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذه الآية الكريمة ذكرها الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر المنافقين وحالهم ومآلهم، فبعد ذكره لحالهم قال جلّ في علاه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ .

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ألم يأتِ الوقت الذي يُقبل فيه أهل الإيمان على القرآن، وعلى ذكر الله، وعلى تحقيق الخشية من الله سبحانه وتعالى؟!

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ وهذا فيه أن القلوب إذا أقبلت على ذكر الله، وأقبلت على وحيه وتنزيله جلّ في علاه، فإنه يؤثّر فيها خشوعًا، يؤثر في قلوبهم خشية وإقبالاً على طاعة الله سبحانه وتعالى. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ .

إذًا هذه الآيات الثلاثة التي ذكر المصنف رحمه الله تعالى جُمع فيها بين الداء والدواء ؛ الداء العضال الذي هو قسوة القلوب، والدواء ذكر الله والإقبال على كتابه والتأمل في وحيه وتنزيله ، فإن شفاء القلوب من هذا الداء العظيم لا يكون إلا بهذا الدواء . ولهذا يؤثر أن رجلاً جاء إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى يشكو قسوة قلبه،

فقال له الحسن: «أذِبه بذكر الله» ؛ أذب هذه القسوة بذكر الله سبحانه وتعالى. فالمصنف رحمه الله تعالى جمع هنا بين ذكر الداء وذكر الدواء.

والآية الثالثة التي ذكرها رحمه الله تعالى وهي في سورة الحديد كانت سبب هداية عدد من عباد الله سبحانه وتعالى، منهم الفضيل بن عياض رحمه الله في قصة مشهورة ذكرها الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمته في كتابه «سير أعلام النبلاء».

قال رحمه الله تعالى :

١٩ – عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: «ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم، ويلٌ لأقماع القول، ويلٌ للمصرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون» رواه أحمد.

****

قال: **عن ابن عمرو** أي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما **مرفوعًا** أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: **((ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم))** وهذا فيه القاعدة المعروفة في الشريعة أنّ الجزاء من جنس العمل، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: ٢٦] ؛ فالجزاء من جنس العمل.

قال: **((ارحموا تُرحموا))** ؛ «ارحموا»: أي أنتم أيها العباد مَن في الأرض ، «تُرحموا»: أي يرحمكم من في السماء ، ربّ العالمين جلّ في علاه. وفي الحديث الآخر: ((مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ)) ؛ فالجزاء من جنس العمل.

ولهذا يجب أن يكون تعامل الإنسان مع الناس ، مع الدواب ، مع الطير إلى غير ذلك أن يكون تعامله معهم بالرحمة، يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بهذا التعامل ، لأنه إذا كان فيه هذه الرحمة للناس والدواب والطير فإن الله يرحمه . ولهذا جاء في «الأدب المفرد» للإمام البخاري رحمه الله أن رجلاً سأل النبي عليه الصلاة والسلام قال: «يا رسول الله الشاة أذبحها وأرحمها» يذبحها لأن الله أباح له أن يذبحها؛ ليأكل ويطعَم ويطعَم أهله وأولاده وضيفه من لحمها، لكن وهو يباشر ذبحها قامت فيه رحمه لهذه الدابة ، ولهذا يرفق بها ويحسِن الذِّبْحة ويحدّ شِفْرته كما جاء بذلكم الحديث، ويتعامل معها برفق ورحمة ليس بغلظة وقسوة وشدة، فقال: «يا رسول الله، الشاة أذبحها وأرحمها»، فقال عليه الصلاة والسلام: ((والشاة إذا رحمتها رحمك الله)) ؛ وهذا فيه أن رحمة الإسلام التي دعا إليها عباد الله المؤمنين رحمة عامة، ليست خاصة بالناس، بل هي تشمل الناس والدواب والطير.

((ارحموا مَن في الأرض))، و «في» هنا بمعنى «على» ، ((من في الأرض)) أي من على الأرض، ليس المراد ((من في الأرض)) أي مَن هو في بطنها ، ((ارحموا من في الأرض)) أي من على الأرض، و«في» تأتي بمعنى «على» ، **((يرحمكم مَن في السماء))** أي مَن على السماء، وهو الله سبحانه وتعالى، العليّ على عرشه المجيد، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] . فيقول عليه الصلاة والسلام: ((ارحموا تُرحموا)) ؛ ارحموا عباد الله، وارحموا الناس، ارحموا الدواب، ارحموا الطير ؛ تُرحموا: يرحمكم من في السماء سبحانه وتعالى .

((**واغفروا**)) : أي قابلوا الناس في أخطائهم، في ظلمهم مثلاً لكم، في تعدياتهم إلى غير ذلك، قابلوا ذلك بالعفو والصفح والتجاوز، ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٤] قابلوا ذلك بالعفو والمسامحة.

((**واغفروا**)) : أي لمن أخطأ عليكم ، لمن أساء في حقكم، اغفروا له ذلك ((**يُغفر لكم**)) : أي يغفر الله لكم خطاياكم وذنوبكم. وهذا فيه أن الجزاء –كما تقدم– من جنس العمل.

هذا كلام عظيم جدًا مؤثر، ((ارحموا ترحموا)) ، ((اغفروا يغفر لكم)) كلام عظيم، وفيه هدايات عظيمة مباركة، لكن من الذي ينتفع به!! إلا من فتح الله على قلبه، وشرح صدره للإقبال على الخير وقبوله ، ولهذا قال بعده:

((**ويلٌ لأقماع القول**)) ؛ أقماع القول : هم أولئك الناس الذين يسمعون المواعظ ، الزواجر ، الترغيب، مثل هذا الترغيب العظيم ((ارحموا ترحموا)) ، ((اغفروا يغفر لكم)) ، يسمعون لكن لا ينتفعون، مثل ما يقال: يدخل من أذن ويخرج من الأذن الأخرى.

قال: ((**ويلٌ لأقماع القول**)) ؛ الأقماع: جمع قِمْع ، وهو الذي يسمى بالعامية أو الدارجة "المِحْقان" ، المِحْقان : وعاء أعلاه واسع وأسفله ضيق ، فإذا أردت أن تصُب زيتًا أو ماءً أو عسلاً في وعاء فوَّته ضيقة تأتي بهذا المحقان وتضع الجانب الضيق في المكان الذي تريد ثم تصب من الجانب الواسع فينزل . هذا المِحْقان الذي يقال له القِمع، ماذا ينتفع بهذا الذي يُصب فيه؟! يدخل من جهة ويخرج من الجهة الأخرى، ما ينتفع ولا يحتفظ بشيء منه، كل ما تصبه فيه يخرج من الجهة الضيقة، تصب من جهة واسعة ويخرج من الجهة الضيقة، ما يستفيد، طول وقته لا يستفيد، يُصب فيه أشياء جيدة، من عسل وزيت وأشياء مفيدة جدًا، كلها لا يستفيد منها، تدخل من الجهة الواسعة وتخرج من الجهة الضيقة. فقال: ((ويلٌ لأقماع القول)) يعني أولئك الذين يسمعون القول العظيم، المواعظ المؤثرة ، الكلام النافع المفيد فلا ينتفعون ، مثلهم تمامًا مثل الأقماع التي يدخل فيها الأشياء الجيدة من جهة وتخرج من الجهة أخرى، وهؤلاء يسمعون ويسمعون ويسمعون لكن لا تعي قلوبهم ولا تعقل ولا تنتفع ولا تتعظ ولا تتأثر.

قال: ((**ويلٌ للمصرّين، الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون**)) ؛ «ويل»: هذه كلمة تهديد ووعيد وإنذار بالعقوبة، عقوبة الله سبحانه وتعالى. «للمصرّين»: أي المصرّين على ذنوبهم وما يُسخط ربهم سبحانه وتعالى .

«**الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون**»: يعلمون أن هذا فيه سخط الله، فيه عقوبة الله، يعلمون أن هذه ذنوب عظيمة ومخالفات جسيمة لأمر الله سبحانه وتعالى وهم مصرُّون على الذنوب غير مبالين بما يُسخط الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

٢٠ – وللترمذي عنه مرفوعًا: ((لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب، وإن أبعد القلوب من الله القلب القاسي)) .

****

وللترمذي عنه أي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما **مرفوعًا** أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((**لا تُكثِروا الكلام بغير ذكر الله**)) يعني لا ينبغي للإنسان أن يكون مكثرًا من الكلام ؛ لأن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه فالنار أولى به». فكثرة الكلام يترتب عليه كثرة الزلل . وسيأتي عند المصنف رحمه الله تعالى أبواب خاصة تتعلق بالكبائر المتعلقة باللسان ، فالذي يكثُر كلامه لا يضبط نفسه فيما يقول، تجده مع كثرة الكلام ربما تخرج منه الكلمة لا يُلقي لها بالاً لكثرة كلامه يهوي بها في النار سبعين خريفًا والعياذ بالله. ولهذا يحتاج العبد إلى عناية بكلامه ومنطقه وضبط ألفاظه والبُعد عن الثرثرة وكثرة الكلام ، بل يتكلم باعتدال، يتكلم بما فيه منفعة وفائدة دينية أو دنيوية ، يتفكر فيما سيقول ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث: ((مَنْ صَمَتَ نَجَا)) ، وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)) ، وسيأتي كما أشرت عند المصنف رحمه الله بابٌ خاص بذلك.

قال: ((**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلوب**)) هنا ذكرٌ للداء والدواء ؛ الداء: القسوة، والدواء : الذكر. مثل ما قال بعض السلف: «هذا القرآن فيه ذكر دائكم ودوائكم». قال: «دائكم الذنوب، ودوائكم الاستغفار». وهذه السنّة فيها ذكر الداء والدواء، فالداء قسوة في القلوب، والدواء ذكر الله سبحانه وتعالى.

وهذا الدواء –إن صحَّت العبارة كما يُعرف في الطب– على نوعين: دواء وقائي ، ودواء علاجي لمرضٍ قائم . وذكر الله عزّ وجلّ فيه هذا وهذا. إذا أكثر الإنسان من ذكر الله كان في ذلك وقاية لقلبه من القسوة، وقاية من هذا الداء، يحتاج الإنسان إلى أن يكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى حتى يتقي هذا المرض العضال الذي هو القسوة ، فهو من الطب الوقائي. وإذا كان الإنسان أُصيب بالقسوة لا علاج له إلا ذكر الله سبحانه وتعالى ؛ فالعبد يحتاج إلى الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى وقايةً لقلبه من القسوة، ويحتاج إلى ذكر الله سبحانه وتعالى لخروج القلب من القسوة إن كان أُصيب بها.

وقسوة القلب هي أشد الأمراض خطورة ، وعندما يُتحدث عن بعض الأمراض التي تتعلق بالجسد وعن الطب الوقائي لها وعن العلاج تجد الناس يقبِلون عليها ويأخذ التعليمات بدقة ويطبِّق، وتجد بعضهم يقوم مثلاً بأنواع من الحمية الغذائية وغير ذلك حتى يقي بدنه من تلك الأمراض، كما قال بعض السلف –معنى كلامه–: عجبًا لمن يتقي بعض الأطعمة التي أباحها الله سبحانه وتعالى خشية من الأمراض وحمايةً لجسمه ولا يتقي الذنوب خوفًا من النار وسخط الجبار سبحانه وتعالى!! يتقي بعض الأطعمة خوف مضرتها ولا يتقي الذنوب خوف معرّتها.

قال: ((**وإن أبعد القلوب من الله القلب القاسي**)) ؛ وهذا فيه خطورة هذا المرض، وأن القلب إذا أصيب بهذه القسوة كان من أبعد القلوب عن الله سبحانه وتعالى . ومفهوم المخالفة لذلك : أن أقرب القلوب إلى الله سبحانه وتعالى القلب الذاكر، وفي الحديث: ((فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ)) .

قال رحمه الله تعالى :

٢١ – ولهما عن جرير رضي الله عنه مرفوعًا: ((مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله)) أخرجاه .

****

قال رحمه الله تعالى: **ولهما عن جرير رضي الله عنه مرفوعًا: ((من لا يرحم الناس لا يرحمه الله))** ؛ هذا مقابل ما تقدَّم ((ارحموا تُرحموا)) ، ((ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)) ، في مقابل ذلك : مَن لا يرحم لا يُرحم، من لا يرحم الناس لا يرحمه الله سبحانه وتعالى. وهذا فيه ما تقدم أن الجزاء من جنس العمل؛ إن كان إحسانًا فإن الله يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠] ، وإن كان إساءةً فإن الله يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾ [الروم:١٠] .

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ ذكر ضعف القلب

وقول الله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤] ، **وقوله تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** [العنكبوت:١-٣] ، **وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ الآية**[المائدة: ٢٢] ، **وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية** [العنكبوت:١٠] .

****

قال رحمه الله: «**بابٌ ذكر ضعف القلب**» ، وضعف القلب أيضًا آفة ومرض من أمراض القلوب وهو دون الذي قبله وهو قسوة القلب ، فضعف القلب مرضٌ يصيب القلب، فإذا أصيب القلب بالضعف يتبع ذلك الجبن والخَوَر والانهزامية والتواني والفتور وغير ذلك من أمور تترتب على ضعف القلب.

قال: **وقول الله تعالى ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾** والسياق في الحديث عن الفتية أصحاب الكهف ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي أن الله عزّ وجلّ في تلك المقامات والشدائد التي مروا بها، وكانوا في قومٍ عندهم بطشٌ شديد وظلم وبغي، فالله عزّ وجلّ ثبَّت هؤلاء الفتية على الحق والهدى، وهداهم سبحانه وتعالى سواء السبيل، وزادهم تبارك وتعالى هدى، وربط على قلوبهم. ومعلوم أن القلب في الشدائد العظيمة ووجود الظلم والبغي

والبطش والعدوان من الظلَمة من الجبارين من المعتدين يصيبه ما يصيبه، فإذا منّ الله عزّ وجلّ على القلب وربط على القلب ثبت القلب وقوي، ومعه أيضًا في ذلك البدن قوةً وثباتًا، تبِعه البدن، فالأمر بيد الله سبحانه وتعالى جلّ في علاه. قال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ .

قال: **وقوله تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** أي أنّ هذه الحياة ميدان امتحان وابتلاء وتمحيص للقلوب ، قويّها من ضعيفها، صالحها من طالحها ، فهذه الحياة دار ابتلاء وامتحان. ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لابد من الفتنة لأهل الإيمان التي يحصل بها التمحيص. قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ صدقوا في إيمانهم وطاعتهم وتوحيدهم وعبادتهم لله ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ .

قال: **وقوله ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾** فهؤلاء الذين كانوا مع موسى عليه السلام بسبب ضعف القلوب وأيضا ضعف الإيمان قالوا هذه المقالة ؛ قالوا ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ فهؤلاء قالوا هذه المقالة لضعف القلوب وضعف الإيمان بالله سبحانه وتعالى .

وأورد قول الله عز وجل : **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾** [العنكبوت:١٠] وهذا أيضا كذلك من ضعف القلوب وضعف الإيمان أنه إذا أوذي في الله أي امتُحن في جنب الله امتُحن في دين الله سبحانه وتعالى بسبب هذا الابتلاء والامتحان وضعف القلب يسوّي بين فتنة الناس وعذاب الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

٢٢ – ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا: ((المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)) .

****

قال : **((المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده))** أيضا في بعض الروايات ((المؤمن من أمِنَه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)) ؛ والمراد بالمسلم هنا والمهاجر: أي الكامل في إسلامه والكامل في هجرته والكامل في إيمانه هو من كان بهذا الوصف : ((مَن سلِم المسلمون من لسانه ويده)) ؛ «من لسانه»: لا يعتدي على أحد بلسانه ، «ومن يده»: أيضا لا يعتدي على أحد بيده .

قال : ((**والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**)) أي ابتعد عن كل ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه من الخطايا والذنوب، أيضا في زيادة في بعض الروايات ((والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله)) فذكرها أربع أمور ، وجاء أيضا في بعض الروايات أنه قال ذلك عليه الصلاة والسلام في خطبةٍ له للناس في حجة الوداع ؛ وهذا مما يدل أن هذه المعاني من المعاني المهمة العظيمة والوصايا الجليلة التي يحتاج أن تُبين للناس في المجامع العامة حتى يُعرف الإيمان ويُعرف الإسلام والفرق بينهما والهجرة والجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى .

وعلاقة هذا الحديث بالترجمة: أن هذه المعاني المذكورة من قوة القلب ، وانتفاؤها أو انتفاء بعضها من ضعف القلب.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .